أبواب الشعر الجاهلى

د. ثريا دار *

اغراض الشعر هى فنونه و موضوعاته التى يقول فيها الشعراء من مدح و هجاء و فخر و رثاء و غزل و حكمة و ما شاكل هذه الموضوعات التى عرفها الشعر والشعراء من قديم.

أغراض الشعر طرقها الشعراء فنا ولكن لم يصطلحوا عليها اصطلاحا و كانت أقسام الشعر فى الجاهلية كما يقول ابو هلال العسكرى خمسة " المديح والهجاء والوصف والتشبيب والمرائى حتى زادفيها النابغة سادساً وهو الاعتذار فاحسن فيه ولا اعرف احدًا من المحدثين بلغ مبلغه فيه إلا البحترى" و ليس للعرب شى ينسب إلى التهانى وما جاء عنهم من شكلها فهو من جملة المدح.

قال ابن رشيق فىالعمدة " بنى الشعر على المدح والهجاء والنسب والرثا، وقواعد الشعر أربع : الرغبة ، والرهبة والطرب والغضب فمع الرغبة يكون المدح والشكر و مع الرهبة يكون الاعتذار والاستعطاف و مع الطرب يكون الشوق و رقة النسيب ومع الغضب يكون الهجاء و التوعد والعتاب الموجع وقال الرمانى: أكثر ما تجرى عليه أغراض الشعر خمسة:" النسيب ، والمدح والهجاء والفخر والوصف"(٢).

---

* الأستاذ المشارك ، بقسم اللغة العربية ، جامعة اسلامية ، بهاولفور.

وزع قدامة في كتابه " نقد الشعر" هذا الفن على ستة موضوعات، "هي المديح، والهجاء والنسيب والمراثي والوصف والتشبيه "(٣) و حاول بعقله المنطقي أن يرد الشعر إلى بابين أو موضوعين هما المدح والهجاء : فالنيسب مديح و كذلك المراثي ، و مضى يعين المعاني التي يدور حولها المديح ، وهي في رأيه الفضائل النفسية و نجد نفس المحاولة في تضييق موضوعات الشعر واضحة في كتاب نقد النثر " فهو مديح وهجاء و حكمة ولهو ، و يدخل في المديح والمراثي والافتخار والشكر واللطف في المسألة ويدخل في الهجاء والعتاب كما يدخل في الحكمة الأمثال والزهد والمواعيظ ، أما اللهو ، فيدخل فيه الغزل والطرد وصفة الخمر والمجون وما أشبه ذلك و قاربه"(٤).

و أول من عد فنون الشعر و ميز بينها تمييزا هو أبو تمام فانه رتب كتابه الحماسة في عشرة ابواب ـ الحماسة ، المراثي والادب والتشبيب والهجاء والأضياف والمديح والصفات والسير والملح و مذمة النساء.

لا نعرف كيف نشأت و تطورت هذه الموضوعات . إن كنا نستطيع ان نظن ظنا انها تطورت من أنا شيد دينية كانوا يتجهون بها إلى الهتهم يستعينون بها على حياتهم فتارة يطلبون منها القضاء على خصومهم، وتارة يطلبون منها نصرتهم و نصرة أبطالهم ، ومن ثم نشاء هجاء أعدائهم و مدح فرسانهم و سادتهم ، كما نشأ شعر الرثا وهو في أصله تعويزات للميت حتى يطمئن في قبره ، وفي اثناء ذلك كانوا يمجدون قوى الطبعية المقدسة التي تكمن فيها آلهتهم والتي تبعث فيهم الخوف ـ و معنى هذا ان موضوعات أو ابواب الشعر الجاهلي تطورت من أدعية و تعويزات وابتهالات للآلهة إلى موضوعات مستقلة.

الهجاء

كان الهجاء فى الجاهلية يقصد به الحط من شأن قبيلة أو عشيرة ، اوفرد من اعداء قبيلة الشاعر و خصومها و نفى المكارم والمحاسن عنه و كانت العرب فى بدء امرها لا تفحش فى هجوها و تكتفى بالتحكم بالهجو و التشلك فى حقيقة حاله ثم اقذع فيه بعض الاقذاع المحترفون بالشعر و حاكاهم السفهاء فى ذلك.

وكان الهجاء سوطا يصبه الشاعر على خصومه و خصوم قبيلته فيثلبهم و يتنقص من مقامهم ، ويزرى بهم ويضع من مكانتهم ، وينسب اليهم البخل والجبن والذلة والهوان ، وكانت الخصومات الكثيرة بين القبائل والحروب المشتعلة فى الجزيرة العربية فى العصر الجاهلى ، سببا فى الاكثار من شعر الهجاء ولكن الماثور من هذا الباب لا يضارع المأثور من باب المديح.

و يمتاز فن الهجاء فى الجاهلية بالقصد فى السب والشتم . لا يعرفون ذكر العورات ولا الافحاش فى سب الآماء والامهات . فكانت معانيهم فى ذلك تتبع بساطة معيشتهم ، فهم لم يعرفوا الغلو فى شى حتى يعرفوه فى الهجاء و تعمد الاوصاف الاجتماعية المزرية بالفرد والقبيلة من الهوان والبخل والجبن وسواها . كان الشاعر فى الجاهلية يهجو وينافر ، ولكنه فى كل ذلك لا يتعدى التعبير بالقصور عن الفضل والتاخر عن الاقران والنكوص عن مواقف الشجاعة والبخل على الضيف والقعود عن نصرة المستجير . ومن صور نادر لفن الهجاء.

قال عارف الطائى وهو شاعر جاهلى يهجو المناذرة

" والله لو كان ابن جفنة جاركم لكسا الوجوه غضاضة وهوانا
وسلاسلايثنين فى اعناقكم و إذا لقطع تلكم لأقرانا"(٥)

وقال ساور بن هند بن قيس بن زهير يهجو بنى أسد:

زعمتم أن اخوتكم قريش لهم إلف وليس لكم إلاف
اولئك أومنو جوعا وخوفا وقد جاءت بنو أسد وخافوا(٦)

وقال قريط بن أنيف احد بنى العنبر:

لكن قومى وإن كانوا ذوى عدد ليسوا من الشرفى شى وإن هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إساءة اهل السّوء احسانا
كأن ربك لم يخلق لخشيته سواهم من جميع الناس انسانا
فليت لى بهم قوماً إذا ركبوا شدوا الإغارة فرساناوركبانا(٧)

كان الهجاء فى الجاهلية كان لا يزال يقرن بما كانت تقرن به لعناتهم الدينية الاولى من شعائر ولعلهم من أجل ذلك كانوا يتطيرون منه ويتشاءمون ويحاولون التلخص من أذاه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ونحن نعرف أن الغزو والنهب كان دائراً بينهم ، غير أن المغيرين إن أغاروا ونهبوا إبلابينها ابل لشاعر ، وتعرض لهم يتوعدهم بالهجاء اضطروا اضطراراً إلى ردها أو على الأقل يردون ماله هو و إبله. يروى الرواة أن الحارث بن ورقاء الأسدى إأغار على عشيرة زهير ، واستاق فيما استاق إبلا له وغلاماً فنظم زهير أبياتا يتوعده بالهجاء المقذع يقول فيها:

ليأتينك منى منطق قذع باق كما دنس القبطية الودك(٨)

ففزع الحارث وردعليه ماسلبه منه وواضح أن زهيرا يستخدم فى وصف هجائه المنتظر كلمة الدنس ، فهو سيلحق به عن طريق هجائه الرجس والإثم.

ويروى أن رجلا يسمى زرعة بن ثوب من بنى عبدالله بن غطفان خدع غلاما من عشيرة مزردبن ضرار الشاعر يسمى خالدا كان يدعى إبلا لأبويه فاشتراهامنه بغنم واستاقها ، ورجع الغلام إلى ابويه . فأخبرهما بما فعل ، فقال ابوه: هلكت والله وأهلكتنا ، وركب الى مزرد وقص عليه القصة، فقال مزرد: أنا ضامن لك أن ترد عليك بأعيانها ، وانشأ قصيدة

طويلة يتوعد فيها زرعة ، ويطلب إليه أن يرد الإبل ونراديعوذها بهجائه فهى إن لم ترد ستكون ناراً تأتى على الأخضر واليابس عند زراعة وقوم وسيصيبها الجرب والأمراض المستعصية ، يقول:

فيا آل ثوب إنما ذود خالد كنار اللظى ، لاخير فى ذود خالد
بهن دروء من نحازوغدة لها دربات كالثدى النواهد
جربن فما يهنان الابغلقة عطين وأبوال النساء القواعد(٩)

قد كان طرفة هجاء. هجا عمرو بن هندالملك كما هجا ابن عمه عبد عمرو و هجا قومه كما هجا أعداءهم وتنبأ له المتلمس منذطفولته بالمقتل بسبب نشأته وفطرته على الهجاء.

ترجع اسباب ميله إلى الهجاء و إلى توقد عاطفته و حدة شعوره واضطرام حسه وإلى قوة اعتزازه بنفسه و شدة تأثره مما يشعر به من تقصير فى حقه من قومه و سواهم وإلى يتمه الذى جعله يتوهم العداوة من الصديق والضرر حتى من القريب يقول فى قومه:

أدوا الحقوق نعزلكم أعراضكم إن الكريم إذا يحرب يغضب(١٠)

و يقول فى ابن عمه :

ولا خير فيه غير أن له غنى وأن له كشحا إذا قام أهضما(١١)

فمن الذين لم يحك فيهم هجاء الا قليلا على كثرة ما قيل فيهم: تميم بن مرة و بكر بن وائل و اسد بن خزيمة و نظراؤهم من قبائل يمن ومن الذين شقوا بالهجاء ومزقوا كل ممزق . على تقدمهم فى الشجاعة و الفضل أحياء من قيس نحو غنى و باهلة ابنى أعصر بن سعد بن قيس عيلان واسم غنى عمرة ، وكانوا موالى عامر بن صعصعة يحملون عنهم الديات والنوائب ، و نحو محاوب بن قيس عيلا ن و جسر بن محارب ، حالقوا بنى عامر بنربيعة بن عامر بن صعصعةعلى لوم الحلف ، ومن ولد طابخة بن الياس بن مضر: تيم وعكل ابن مناة بن أدّ ، صادق الشعر سباء كان وقع عليهم فى الجاهلية.

المدح

المدح باب من أهم ابواب الشعر العربى وكان مدح مكانة كبيرة فى العصر الجاهلى وكان المدح على ما عرفت شانه فى الجاهلية لا اسراف فيه ولا إغراق ، وكان فى غالب أمره ذكراً لحقيقة اشتهربها الممدوح.

المدح وهو الثناء على ذى شأن بما يستحسن من الأخلاق النفسية كرجاحة العقل والعدل والعفة والشجاعة وأن هذه الصفات عريقة فيه و فى قومه و بتعداد محاسنه الخليقة كالجمال وبسطة الجسم وشاع المدح عندما ابتذل الشعر و اتخذه الشعراء مهنة.

كان بعض السادة تمتد مآثرهم إلى من حولهم من القبائل فكان يتصدى لهم شعراؤها يمدحونهم لمكرماتهم التى ادّوها ،كأن يفتكوا اسيرا ، على نحو ما صنع خالد بن أنمار بابن اخت المثقب العبدى ، فكان جزاؤه منه مدحة جيدة .

المدح مكانة خاصة بعد أن تكسب الشعراء بالشعر فى اخريات الجاهليلها ثم قصد المكتسبون بالشعر لأغراض شريفة و مقاصد نبيلة منهم رؤساء القبائل والامراء والملوك فمدحوهم و أشادوا بمفاخرهم ومكارمهم و أخلاقهم. فهم يقدمون به على السادة المبرزين و ملوك المناذرة والغساسنة يمدحونهم و يشيدون بمكانتهم بين القبائل و يصفون أخلاقهم ومآثرهم و محاورهم و شجاعتهم و يثغنون ببطولتهم وينالون جوائزهم عطاياهم الجزيلة و أخذوا فى أثناء ذلك يعنون بهذه القصائد عناية بالغة حتى تحقق لهم مايريدون من التأثير فى ممدوحيهم.

و إذا كان الممدوح ملكا لا يبال الشاعر كيف قال فيه ، ولا يكف أطنب وذلك محمود و سواه المذموم وإن كان سوقة فإياك والتجاوز به خطته فإنه متى تجاوز به خطته كان كمن نقصه منها ، وكذلك لا يجب أن يقصرعما يستجق ، ولا أن يعطيه صفة غيره.

واشتهر فى المدح زهير والنابغة وحسان بن ثابت . أما زهير فاختص بأشراف قومه و أما حسان فاختص بالغساسنة . أما النابغة فقد قصد بشعره ملوك الحيرة و غسان يمدحهم و يثنى عليهم و يشيد باعمالهم فأغدقوا عليه المال و كافاؤه على ذلك مكافاة كبيرة ، لكنه مع ذلك كان يعتز بنفسه كثيرا . فخصّ النعمان بن المنذر بمدائحه و تصادف أن وقع بعض قومه اسرى فى أيدى الغاسة فأقبل عليهم يمدحهم ويتشفع فيهم ، مماكان سببا فى غضب النعمان بن المنذر عليه و سرعان ما أخذ يقدم له اعتذارات هى من أروع يقول:

ملوك و إخوان إذا ما أتيتهم أحكم فى أموالهم و أقرب(١٢)

و سبيل الشاعر– إذا مدح ملكا – أن يسلك طريقة الإيضاح والإشارة بذكره للممدوح و أن يجعل معانيه جزلة ، و ألفاظ تقية ، غير مبتذلة سوقية ، ويجتنب – مع ذلك– التقصير والتجاوز والتطويل ، فإن للملك سآمة و ضجراً ، ربما عاب من أجلها مالايعاب ، وحرم من لا يريد حرمانه وكان عمل البحترى – إذا مدح المخليفة – كيف يقل الأبيات و يبرز وجوه المعانى ، فإذا مدح الكتاب عمل طاقته ، و بلغ مراده.

ان الملوك لا تمدح بما يلزمها فعله كما تمدح العامة ، وإنما تمدح بالاغراق والتفضيل بما لا يتسع غيرهم لبذله ومن هذا النوع قول كثير:

رايت ابن ليلى يعترى صلب ماله مسائل شتى من غنى و مصرم
مسائل إن توجد لديك تجدبها يداك،وإن تظلم بها يتظلم(١٣)

لأن هذا انما يقع عن دون الخليفة والملك وهذا من قول زهير فى هرم بن سنان وليس بملك ولذلك حسن قوله:

ان البخيل فلوم حيث كان ولكن الجواد على علاته هرم
هو الجواد الذى يعطيك نائله عفواً و يظلم أحيانا فيظلم(١٤)

يريد أنه يسأل أحيانا ما ليس قبله فيحتمله

كان زهير أحكمهم شعرا و أشدهم مبالغة فى المدح وقد مدح هرم بن سنان و الحارث بن عوف بمدائح كثيرة و أشار بهرم اشادة البليغ الشاعر الساحر.و اجزل هرم له العطاء وله نحو العشرين قصيدة.

و افضل ما مدح به القائد : الجود ، الشجاعة ، وما تفرع منهما ، نحو التخرق فى الهيئات ، والافراط فى النجدة و سرعة البطش.

تمتاز المدائح الجاهلية ببسالتها وصدقها و بعدها عن الغلو والمبالغة وهى أثر جميل لشاعر يتهم القوية.

قد أجاد النابغة فى المدح واسباب اجادته فى المدح معروفة منها حب المال و خصب الخيال وقوة الذكاء وميله إلى التجويد والتنقيح والتهذيب إلى غير ذلك من الأسباب. يمدح النابغة إلى النعمان بن المنذر و يقول.

فانك شمس و الملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب(١٥)

قال زهير يمدح هرم بن سنان والحارث بن عوف المرى سيدى بنى غطفان لسعيهما فى الصلح بين عبس و ذبيان ، وهى قصيدة من النمط العالى ولها مكانتها فى البلاغة العربية قال:

تداركتما الأحلاف قدثل عرشهاوذبيان قد زلت بأقدامها النعل

فاصبحتما منها على خير موطن سبيلكما فيه وإن احز نواسهل

رايت ذوى الحاجات حول بيوتهم قطينا بها حتى إذا نبت البقل

وفيهم مقامات حسان وجوههم وأندية ينتابها القول والفعل

على مكثريهم رزق من يعتريهم وعند المقلين السماحة والبذل(١٦)

قال عمر بن الخطاب لابن عباس: أنشدنى لشاعر الشعراء ، قال من هو يا امير المؤمنين : قال : ابن ابى سلمى قال وبم صار كذالك ؟ قال لانه لا يتبع حوشى الكلام ولا يعاظل فىالمنطق ولا يقول إلا ما يعرف ولا يمتدح الرجل الابما يكون فيه، أليس هو القائل:

إذا ابتدرت فيس بن عيلان غاية ـــن المجد من يسبق اليها يسود
سبقت إليها كل طلـــق مبـرز سبـوق الـــى الغايات غير مجلـد
كفضل جواد الخيل يسبق عفوه السراع وإن يجهدن ويجهد يبعـــد
فلوكان حمد يخلد الناس لـم تمـت ولكن حمد الناس ليس بمخلد(١٧)

قال عبدالملك لقوم من الشـعراء : أى بيـت أمـدح؟ فـاتفقوا علـى قول زهير.

تـــراه إذا ما جئتـه متهللا كانك تعطيـه الذى انت سائـلـه(١٨)

وكذلك لعلقمة بن عبدة فيهم مفضلية بديعة نظمهـا فـى الحـارث الأصغر يتشفع لأخيه وقد وقع فى يديه أسيراً و امية بن أبى الصلت –

وانتهى هذا الفـن مـن فنـون شـعرهم إلى الأعشـى فـأصبح حرفـة للمنالة والتكسب، إذ لم يترملكـا ولاسـيدا مشـهوراً فـى أنحـاء الجزيـرة إلا قصده و مدحه و فخم شـانه معرضـا بالسـؤال وقـالوا انـه اول مـن سـال بشعره.

ثم جاء بعد هؤلاء الحطيئة فاتخذ الشعر تجارة ومكسبا وحرفة بين الناس وذلك مماغض بالشعر وأزرى به عند الخاصة.

الرثـاء

الرثاء من الموضوعات التى تتصل اتصالا واضحا بالحماسة الرثاء ، فقدا كانوا يرثون أبطالهم علـى مـآثرهم و مفـاخرهم فـى قصـائد حماسـية يريدون بها أن يكون ظاهر الفتجـع و بـين الحسـرة و وصـف الحـزن وأن يثيروا قبائلهم لتأخذ بثارهم . فكانوا يمجدون خلالهـم و يصفـون منـاقبهم التى فقدتها القبيلة فيهم ، حتى تنفر إلى حرب من قتلوهم ، وكـان يشـرك الرجال فى ذلك النساء ، فقد كن ما يزلن ينحـن علـى القتيـل حتـى تثـأر القبيلة له . فما تزال امرأة تنوح و يرد عليها صواحبها ، وقد حدثنا الـرواة

أن الخنساء كانت تخرج إلى عكا فتندب أخويها صخرا و معاوية . قالت ترثى أخاها صخراً.

اعينيى جودا ولا تجمدا	الاتبكيان لضحر الندى؟
ألاتبكيان الجرئ الجميل	ألا تبكيان الفتى السيدا؟
رفيع العماد طويل النجا	ساد عشيرته أمردا
إذا القوم مدوا بايديهم	إلى المجد مد إليه يدا
فنال الذى فوق ايديهم	من المجد ثم انتمى مصعدا
يحمله القوم ما عالهم	و غن كان أصغر هم مولدا
وإن ذكر المجد الفيته	تأزر بالمجد ثم ارتدى(١٩)

وقالت ترثيه ايضا:

ألا يا صخر أن ابكيت عينيى	فقد أضحكتنى زمناً طويلا
دفعت بك الخطوب وأنت حي	فمن ذا يدفع الخطب الجليلا؟
إذا قبح البكاء على قتيل	رايت بكاءك الحسن الجميلا(٢٠)

فى هذا الخبر ما يدل على أن النساء لم يكن يندبن موتاهن يوما أو اياماً ، بل كن يطلن ذلك إلى سنين معدودات ، ويقال انهن كن يحلقن شعورهن ويلطمن خدودهن بأيديهن وبالنعال والجلود ، وكن يصنعن ذلك على القبرو فى مجالس القبيلة والمواسم العظام ولعل فى حلق رءوسهن مايجمع بينهن وبين الهجائين كما قدمنا وما يشهد بأن هذا الرثا إنما هو تطور عن تعويزات كانت تقال للميت وعلى قبره حتى يطمئن فى لحده . و بمر الزمن فى فقيدهم ، فتلك التعويزات أصبحت و خاصة عند نسائهم بكاء و نواحاً و ندبا حاراً . و نجد بجانب هذا الندب ضربا من الرثا يقوم على تأبين الميت والإشادة بخصاله و صفاته ، ومانشك فى أن الصورة القديمة لهذا التأبين هى تلك النقوش التى عثروا عليها فى أنحاء

مختلفة من الجزيرة ، وقد تحدثنا عنها فيما أسلفنا وكانوا يكتبون فيها اسماءهم وألقابهم وبعض أعمالهم تمجيدا لذكراهم وتخليداً لها ، وتحولت هذه الصورة الساذجة إلى هذا التأبين الواسع الذى نجده عند الجاهليين وقد ذهبوا يضمون إليه صورة من العزاء والدعوة إلى الصبر على الشدائد.

وقام بالقسط الاكبر من ندب الميت وبكائه النساء والنساء أشجى الناس قلوبا عند المصيبة ، وأشدهم جزعا على هالك ، لما ركب الله عزوجل فى طبعهن من الخور وضعف العزيمة فكن يشققن جيوبهن عليه ويلطمن وجوههن و يقرعن صدورهن ويعقدن عليه مأتماً من العويل والبكاء ، ومن خير ما يصور ذلك كتاب" مراثى شواعر العرب" للويس شيخو ، التى لا تنازع هى الخنساء. فقد قتل اخوها معاوية فى بعض المعارك ، فارتفع شيجها وبكاؤها عليه، و قتل أيضاً أخوها صخر. فاتسع الجرح والتاعت لوعة شديدة.

والرثاء كثير فى الشعر الجاهلى ومن امثلته عينية لبيد فى رثاء اخيه أربدورائية المهلهل فى رثاء اخيه كليب ، والرثاء هو الذى هيج شاعرية المهلهل فأطال القصيدة فى رثاء سيد بنى ربيعة ، ولامية تابط شرا فى رثاء ابن اخته وسوى ذلك من عيون الرثاء فى الشعر الجاهلى.

كان ابو تمام من المعدودين فى إجادة الرثاء و مثله عبدالسلام بن رغبان ديك الجن ، وهو أشهر فى هذا من حبيب ، وله فيه طريق انفرد بها ، وذلك أنه قتل جاريته و اتهم بها أخاه . ثم يحكيها نائحة لها ومن شعره:

انت حديثى فى النوم واليقظة اتعبت هما أهدى بك الحفظه
كم واعظ فيك لى و واعظة لو كنت ممن تناء عنك عظة(٢١)

الموت كاس دائرة على الجميع ولامرد لحكم القضاء وقد ذهبو الشعراء يضمون إليه صورة من العزاء والدعوة إلى الصبر على الشدائد. ومن عادة القدماء ان يضربوا الأمثال فى المراثى يالملوك الا عزة ، والامم

السالفة والوعول الممتنعة فى قلل الجبال والأسود الخادرة فى الفياض و بحمر الوحش المتصرفة بين القفار والنسور والعقبان والحيات لبأسها و طول أعمارها ، وذلك فى أشعارهم كثير موجود لا يكاد يخلومنه شعر.

وكانوا يكثرون من تأبين من يموتون منهم فى ميادين الحرب ، وقد يضمنون هذا التأبين هجاء لاذعا لخصومهم و فخراً بعشيرتهم ومآثرها وإيامها .

وكانوا أحيانا حين يذكرون الموت يتأسون ويتعزون عنه بانه حوص لابد من وروده وقد سبقهم اليه الأجيال الماضية من ملوك وغير ملوك وعلى هذا النحوالم الشاعر الجاهلى بجوانب الرثاء الثلاثة من الندب والتأبين والعزاء ، وكان رثاؤه غالبا يتعلق بأفراد وقلما تعلق بمجوعة من الفرسان

ولدريد بن الصمة قصيدة فى الرثاء يرثى بها أخاه عبدالله بن الصمة لما قتل ومن الغريب أنه بدأها بالغزل ومنها:

تنادوافقالوا: أردت الخيل فارسا فقلت اعبدا لله ذلكم الردى
فإن يك عبدا لله خلى مكانه فما كان وقافا ولا طائش اليد
صباما صبا حتى علا الشيب راسه فلما علاه قال للباطل ابعد(٢٢)

والقصيدة رواها صاحب الحماسة وهى القصيدة الحليلة فى رثاء كليب ورثاء حياتها الزوجية بعد أن ارتكب أخوها جساس جرما فظيعا بقتله كليبا .

نسيب

نظم العرب الشعرى فى كل ما أدركته حواسهم وخطر على قلوبهم ، مما يلائم بيئتهم و ينتظم مع تنشئتهم و يضيق المقام عن سرد الكثير من فنون الشعرو أغراضه عندهم ، وإنما يجمل الإمام باشهرها وهى النسيب ، هو ذكر جمال المرأة و وصف محاسنهن وشرح احوالهن و ممن ظعنهن و إقامتهن و أثر تبريح الشوق بالشاعر و حنينه اليهن وقص

ذكرياته مع محبوبته و ساعات لقائها والديار التى كانت تنزل بها ومسارح اللهو واللعب التى كانت تلعب و تلهوفيها ، إلى غير ذلك من حديث الجمال والظمأ اليه و ذكريات الحب والحنين والشوق إلى المرأة.

النسيب والغزل والتشبيب متقاربان فى المعنى ، التشبيب قاصر على مايأتى به الشاعر فى مطلع كلامه من ذكر المرأة والأطلال و الديار بعد مغادرتهن و ذكريات اللقاء والحب والتشوق إليهن بحنين الإبل ، وغناء الحمائم ولمع البروق ولوح النيران وهبوب النسيم و بذكر المياه والمنازل التى نزلنها والرياض حللنها و وصف ما بها من خذامى وبهار وأقحوان و عرار وكانوا لا يعدون النسّاء إذا نسبوا ، وكان للنسيب عندهم المقام الاول من بين أغراض الشعر ، حتى لوانضم إليه غرض آخر ، قدم النسيب عليه ، وافتتح به القصيد لمافيه من لهو النفس و ارتياح الخاطر ولأن باعثه الفذ هوالحب و هو السر فى كل اجتماع انسانى ، وأهل البدو اكثر الناس حبا لفراغهم و تلاقى قبائلهم المختلفة فى المصايف والمرابع فاذا ما اقترفوا ذكر كل اليف إلفه وحبيب حبه ، ثم عادوا تلك الاماكن مرة اخرى وهاج اشجانهم ، وجدد الذكرى فيهم ما يرونه من آثار أحبابهم و أطلال منازلهم فى غناء الحمائم قال النابغة:

اذ اتغنى الحمام الورق ذكرنى وإن غرب عنها أُم عمار(٢٣)

و فى ذكر المياه والمنازل قال زهير .

بكرن بكورا و استحرن بسحرة فهن و وادى الرس كاليد للفم

فلما وردن الماء زرقا جمامه وضعن عصى الحاضر المستخيم(٢٤)

قال عنتره بعد مغادرتها:

حييت من طل تقادم عهده أقوى و أقفر بعد أُم الهيثم (٢٥)

وجدنا ذكريات الشاعر لشبابه و وصفه للمرأة و معروف أن اول صورة تلقانا فى قصائدهم هى بكاء الديار القديمة التى رحلوا عنها و

تركوا فيها ذكريات شبابهم الاولى ، وهو بكاء يفيض بالحنين الرائع ، و مر بنا أنهم يردونه إلى شاعر قديم سبق امرؤ القيس هو ابن خذام.

ونراهم يقفون عند المرأة فيصفون جسدها ، ولا يكادون يتركون شيئاً فيما دون وصف له .

و وقف الشعراء طويلا يصورون حسبهم للمرأة وما يذرفون من دموعهم على شاكلة قول بشر من أبى خازم.

فظلت من فرط الصبابة والهوى طرفا فوادك مثل فعل الايهم(٢٦)

وكانوا كثيرا ما يصفون ظعنها وهى ترحل فى الجزيرة من موضع إلى موضع وكانت الرحلة أساسا فى حياتهم ، فهم يرحلون وراء منابت الغيث ،و ينتقلون معها حيث حلت وفىمعلقة زهير وصف طويل لهذه الظعن قال الزهير فى الظعن الرحيل :

تبصر خليلى هل ترى من ظعائن تحملن بالعلياء من فوق جرثم
علون بأنماط عتاق وكلة وراد حواشيها مشاكهة الام(٢٧)

قال النابغة فى محاسنها:

بيضاء كالشمس واقت يوم اسعدها لم وذا ولم تفحش على جار
والطيب يزداد طيباً إذ يكون بها فىجيد واضحة الخدين معطار(٢٨)

امرؤالقيس هوامل من رقق الغزل و أطاله و شبه المرأة بالمها والظبى والظليم و وصف دبيبه اليها و فجوره فى حبه ولهوه مع محبوباته وها هى ذى أمثلة للنسيب من الشعر الجاهلى لامرؤ القيس إمام الشعراء وشيخ النسيب والغزل و مبتدئه من لا ميته الطويلة المشهورة.

ويارب يوم قد لهوت وليلة بآنسة كانها خط تمثال
يضى الفراش وجهها لضجيعها كمصباح زيت فى قناديل ذبال
كأن على لباتها جمر مصطل أصاب غضىً جزلا وكف باجذال
نظرت اليها والنجوم كانها مصابيح رهبان تشب لقفال

وصرنا إلى الحسنى ورق كلامنا و رضت فذلت صعبة اى إذ لال
فاصبحت معشوقا و أصبح بعلها عليه القتام سيئ الظن ولبال(٢٩)

والقصيدة عالية الطبقة فى البلاغة ، رواها صاحب المفضليات و ذكر منها اربعين ابياتا . وقد بدأها الشاعر بالذكرى والطيف ، و وصف دار صاحبته الدارسة ثم وصف جمالها و بياض وجهها و كثافة فرعها ، ثم أضحى على لائمته التى لامته على كرمه وانفاقه واحتج بأن الخلود فى البذل والجود لا فى الثراء والشح و بأن المنية غاية الاحياء.

كان المنخل اليشكرى شاعرا جاهليا و يعاصر النابغة و نادم النعمان بن المنذر ، قال المنخل فى النسيب ايضا. و قال المرقش الاكبر قصيدته المغردة فى الغزل . قال طرفة قصيدة المفردة فى الغزل هى احدى قصائده الجياد بدأها بالنسيب والتغزل فى محبوبته "هر" فى أبيات طويلة ومطلعها :

أصحوت اليوم أم شاقتك هر ومن الحب جنون مستعر
لايكن حبك داء قاتلا ليس هذا منك ماوى يحر(٣٠)

وحق النسيب ان يكون حلو الالفاظ رسلها ، قريب المعانى سهلها، غير كزّ و لا غامض ، وأن يختارله من الكلام ما كان ظاهر المعنى، لين الإيثار و رطب المكسر وشفاف الجوهر ويطرب الحزين ويستخف الرصين.

الوصف

الوصف هو شرح حال الشى وهيئته على ما هو عليه فى الواقع لإحضاره فى ذهن السامع ، كأنه يراه أو يشعر به . الوصف باب واسع فى الشعر الجاهلى سعة مناظر الحياة و مشاهد الوجود نفسها. ولقد صور الشاعر الجاهلى بئيته و حياته و ألوان معيشته فى شعره تصويراً رائعاً بديعاً، و هذا هو الأصل الذى جرى عليه اكثر العرب قديماً وقد يبالغ فيه: لتهويل أمره أو تمليحه أو تشويهه ، أو نحو ذلك فيكون منه المقبول

والمقوت ولا يمكن احصاؤه ضرب الوصف عند العرب فانهم وصفوا كل ماراؤه او خالط نفوسهم وقد وصفوا كل شى وقعت عليه اعينهم فى صحرائهم ، و فى عادة يذكرون ذلك بعد غزلهم و تشبيبهم إذ يخرج الشعراء إلى وصف رحلاتهم فى الصحراء، فيتحدثون عن قطعهم للمفاوز البعيدة فوق إبلهم وياخذون فى وصفها وصفاً مسهبًا على نحوما هومعروف عن طرفة فى وصفه لناقة بمعلقته وقد كاد أن لا يترك فيها عضواً ولا جزاءً دون وصف و تصوير. يصف طرفة ناقته فيقول:

وانى لأمضى الهم عند احتضاره بعوجاء مرقال تروح و تغتدى
أمون كألواح الإدان نسأتها على لاحب كأنه ظهر برجد
لها فخذان أكمل النحض فيها كأنهما بابا منيف ممرد
فان شئت لم ترقل وإن شئت أرقلت مخافة ملوى من القد محصد(٣١)

و طرفة يمتاز بغرابة اللفظ وقوة الأسلوب وصدق الوصف و صحة التصوير والرسم ، ويبدو فيه أثر بيئته واضحا ، فوصفه للسفينة فى معلقته يرجع إلى كثيرة ماشهد من سفن تسير فى البحرين وسواها. و وصف الصحراء كما وصف الناقة والفرس ومجالس الشراب ، والغيث والرعد والديار والأطلال وسوى ذلك من مشاهد الصحراء و مناظرها ، ولا شك أن شعره يتصل بالصحراء اتصالا وثيقا لأنه صورة منها ورسم لمناظرها و ألوان الحياة و الطبيعة فيها و نماذج وصفية من معلقته التالية. قال طرفة يصف السفينة.

كأن حدوج المالكية غدوة خلا يا سفين بالنواصف من ود
عدولية ، أو من سفين ابن يامن يجوربها الملاح طورا و يهتدى
يشق حباب الماء حيزو مها بها كما قسم الترب المفايل باليد(٣٢)

قال طرفة فى الديار والأطلال:

لنحولة أطلال ببرقة ثهمد تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد(٣٣)

الوصف من شعرهم المهمة . فقد وصفوا من الحيوان الإبل والناقة والغنم وافتنو فى ذلك بما لم تفقهم فيه أُمة فى نفس نفيس لديها ومن أبلغ اوصاف الإبل طرفة(٣٤).

و وصفوا من النبات وضروبه و شياته ومن السماء نجومها وكواكبها وسحائبها و بروقها و أنواءها و أمطارها (٣٥).

و وصفوا الخيل فى ضروب خلقها و أحوال سيرها ومن أشهرهم فى ذلك امرؤالقيس و أبو داؤد الايادى كما قال المرؤ القيس:

فعن لنا شرب كأن نعاجه عذارى دوار فى الملاء المذيل
فأدبرن كالجزع المفصل بينه بجيد معم فى العشيرة فخول
فالحقنا بالهاديات و دونه جواجرها فى صدة لم تزيل(٣٦)

و وصفوا ايضا كواسر السباع و أوابد الوحوش و جوارح الطيور وصوادها وما فى بلادهم من خشاش الارض وهوامها و وصفوا الجبال والرمال والوديان والمياه والأمطار والسيول والبرق والرياح واليل والنهار وأماكن نزوله و مواضع لهوه وكره و خاصة الديار والأطلال والدمن و تعفيه الرياح والأمطار لآثارها وشبهوها أحيانا برقم الكتب و صحائف الرهبان وبالوشم علىظاهر اليد وبالثوب الخلق أو المرقم قال امرؤ القيس فى تعفية الآثار:

قفانبك من ذكرى حبيب و عرفان
و رسم عفت آياته منذ أزمان
أتت حجج بعدى عليها فاصبحت
كخط زبور فى مصاحف رهبان(٣٧)

المفضليات والأصمعيات تزخر بأحاديثهم عنها و مقدار ما كانوا يرون فيها من جمال و كانوا يشبهونها بالقصور ويشبهون قرائمها بالأعمدة وقد يشبهونها بالسفن والقناطر ويشبهون قوائمها بجذوع الطلح ويديها بالصخر الغليظ أو بيدى السابح ، وصوتها بصوت القصب و

خفافها بالمطارق. وقد يشبهونها بالجبل ويشبهون صدرها بالطريق وكانوا يشبهونها بكثير من الحيوان مثل الظليم والثور وحمار الوحش ، وحنيئذ يستطردون إلى وصف هذه الحيوانات وما يكون من عداك بينها وبين كلاب الصيد يقول الجاحظ" ومن عادة الشعراء إذا كان الشعر مرثية أو موعظة أن تكون الكلاب هى التى تقتل بقر الوحش وإذا كان الشعر مديحاً و قال كأن ناقتى بقرة من صفتها كذا أن تكون الكلاب هى المقتولة . ليس على أن ذلك حكاية عن قصة بعينها ولكن الثيران ربما جرحت الكلاب وربما قتلتها و أما فى أكثر ذلك فانها تكون هى المصابة والكلاب هى السالمة والظافرة وصاحبها الغانم "(٣٨).

وكانهم كانوا يتخذون قتل الكلاب فى المديح رمزاً لأعداء الممدوح وكانوا فعلا يشبهونهم بالكلاب وعلى نحوها اكثروا من وصف الإبل اكثروا من وصف الماعز كما اكثروا من وصف الخيل وشبهوها بضروب من السباع المنعوته بالمخاطب وطول الاظفار ولامرى القيس قطعة بديعة بمعلقته يصف فيها فرسه الذى اتخذه للصيد، وفيها يقول:

لـه ايطلا ظبى و ساقا نعامة وإرخاء سرحان وتقريب تتغل(٣٩)

وذكروا الأسد و وصفوه و وصفوا الذئب والهر والديك الخنزير فى وصفهم لنشاط الناقة وقد ذكروا كثيرا الصباع والرخم والعقبان والنسور والغربان وأكلها القتلى كما ذكروا الحبارى والضب واليربوع و الجرذان والجراد والأرانب والضفادع والوعول أو المعز الجبلية و تعرضوا كثير الوصف الحيات والأفاعى و وصفوا الحيوان والزواحف والطير وكثيراً ما يستطردون من وصف فرسهم بالعقاب إلى وصفها وكانوا يذكرون الغراب كثيرا. وكانوا يذكرون القطا والجراد والعصافير والنمل والعنكبوت والحمام و نوحه وما يهيج فيهم من شوق وشجا و وصفوا البرد و قوارصه و الحر وهواجره وما يجرىفى ديارهم احيانا من خصب بعد مطر غزير و فى معلقة امرئ القيس قطعة طويلة يصف فيها سيلا

عرما نزل فى مواطن بنى اسد بالقرب من تيماء و ذكروا ذكر الخصب و رطوبة النبات ولدونة الأغصان وكثرة الماء اكثروا من وصف الجدب وطالما وصفوا و عوثة الصحراء و مخاوفهم فى ليا ليها من الجن والشياطين و كادوا لايتركون شيئاً يتصل بهم الا وصفوه فوصفوا الراعى والمراعى ، و وصفوا الأسلمة والحروب ، ووصفوا الخمر و أوانيها و سقاتها ومجلسها و أثرها.

الحماسة

ان الإنسان عامة ، والعربى خاصة ، ميال من طبعه الى الحماسة وقد حفل الشعر العربى ، فى العصور القديمة ، بشعر الحماسة وصف الإيام والبطولات واننا نتوقف عند مظاهر الملحمة فى المعلقات الجاهلية ، ولاسيما معلقات عمر و بن كلثوم والحارث بن حلزة وعنترة بن شداد.

وكان الداعى الى الحماسة فى الجاهلية كل ما كان داعياً الى الحرب ،وهكذا كانت كل حرب غزاة ، وكل تعدّ و كل منأوأة ، سبباً من أسباب الفيض الملحمى الذى رافق تاريخ العرب فى مختلف اطواره ، وهكذا أخيرا كانت ايام العرب فى الجاهلية محور شعرهم ، ومدار اقوالهم ولتلك الأيام تاريخ طويل وهى ترجع إلى أيام العرب والفرس و أيام القحطانية فيما بينهم ، و أيام القحطانيين والعدنايين ، وأيام ربيعة فيما بينها ، وأيام ربيعة وتميم وأيام قيس فيما بينها ، وأيام قيس و كنانة ، و أيام قيس و تميم و أيام خبّة وغيرهم.

دار الشعر الحماسى فى الجاهلية حول وصف المعارك ، و وصف اعمال البطولة ، ثم وصف الخيول والابل وادوات الحرب وما إلى ذلك. وقد يرع الجاهليون فى وصف المعارك وتصويرها حية نابضة مملوءة بالهول، كما برعوا فى وصف ادواتها. فالميادين فسيحة الارجاء، واحياء العرب فى لغظ و ضوضاء ، و يقوم فيها المنادون ينادون الحرب ويدعون

إلى القتال ، لأن الشرف قد ديس أو لان الدم المهراق يطلب الثأراو لان المراعى قد اغتصبت ، او لان المواشى قد سبقت أو لان فرس فلان قد سبقت فرس ابناء القبيلة ، او لاسباب اخرى الحقت بالقبيلة عاراً ، و نشرت فى الحى ذلا وصغاراً.

و هكذا كان الجاهليون يصفون الابطال بالشدة والشجاعة و اليأس ، و يصفونهم بقوة الساعد ، وقوة الشكيمة ، والعنادام فى الصدام و رجاحة العقل فى الكروالفروالحيلة فى مواقف الشدة والعفة فى تقاسم الغنائم والبديهة فى المآزق الضيقة ، والكرم فى كل حال. و كانوا يصفون الخيول بالسرعة والخفة و شدة الانقضاض ، ويشبهونها بالعقبان والظباء والنعام والريح و يستحسنون فيها الضمور، والملاسة ومتانة الساقين، و قوة الجنبين ، وطول الذنب واستقامة العيبب وما الى ذلك مما يرجع الى النشاط والسرعة وكانوا يصفون عدة الحرب بما كان يصفها به غيرهم من الشعوب القديمة . فيذكرون للسيف بلاءه فى حز الرقاب ، وقصم الظهور و قطع الدروع ، و ذكروا للرمح التماع سنانه و أنه أزرق كأنياب الغول يخترق الصدور و يدمى النحور.

الحماسة عنصر اساسى من عناصر الشعر و باب كبير فى الشعر الجاهلىعند العرب وهى مأثر عن العرب فى جاهليتهم من شعر قالوه فىوصف شجاعتهم و نضالهم و حروبهم ومواقعهم ، وفى الدعوة إلى الأخذ بالثأر والانتقام من العدو و فىالتحريض علىالقتال و بعث عزائم الابطال فىالحروب وما سوى ذلك من شى أغراض شعر الحماسة و مناحيه ولعل لها صلة وثيقة بالنفس العربية . المراد بالحماسة شعر الحرب ووصف أدواتها وقد حفل الأدب العربى بهذا النوع من الشعر منذ أقدم عصوره و صدر به أبو تمام حماسته و نماذجه كثيرة ، واشتهر فيه عنترة بن شداد وغيرهم . ولنعرض هنا شواهد لهذا الفن من فنون الشعر. قال الفند الزمانى فى حرب البسوس.

صفحنا عـــن بنى ذهل وقلنا القـــوم إخـــوان
عسى الأيـــام ان يرجعن قوما كالـــذى كانـوا
فـــــلما صر الشـــــر و أمسى وهو عريـــان
و لم يبـــق سوى العدوان دنـــاهم كمـــا دانـــوا
مشينـــا مشيـــة الليـــث غدا والليث غضبـــان
بضـــرب فيـــه تـوهين و تخضيـــع و إقـــران
وطـعـن كفـــم الـــزق غـــذا و الـــزق ولآن
و بعض الحلم عند الجهل للـذلـــة إذعـــــان
و فى الشر نجاة حيـن لا ينجيـــك احسـان (٤٠)

والفند الزمانى شاعر جاهلى كان أحـد فرسـان ربيعـه المشـهورين المعدودين شهد حرب بكر و تغلب وقد قارب مائة سنة واسمه اشـهل بـن شيبان ابن ربيعة بن زمان.

و هذه القصيدة من عيون الشعر الجاهلى وقد نظمهـا الشـاعر فـى حرب البسوس التى كانت بين بكر و تغلب و ذلك أن بكر بن وائل قـوم الفند بعثوا إلى بنى حنيفة فى حرب البسوس يسـتنصرونهم فـأمدوهم بـه و بقومه بنى زمـان.

وعلمـت انى يـــوم ذاك مـنـــــازكعبـــا و نهـــدا
قـوم اذا لبسوا الحـديـــد تنمـروا حـــــلقـا وقـــدا
كل امرى يجرى الى يـــوم الهياج بمـــا استعـــــدا(٤١)

أما عنترة فهو ابن شداد العبسى وهو احـد فرسـان العرب بجميـع صفات التى كان يتحلى بها فرسان القرون الوسطى من شـجاعة وشـرف وقتال فى سبيل هدف أعلىٰ، ومناصرة للضعيف وحب شديد عنيف لفتـاة كريمة يعمل جهده فى إرضائها ، وهو شاعر فياض القريحة يتلهب حماسة ، فنظم الشعر يصف مواقعـه و إذا نفسـه يقـترب مـن نفـس الملاحـم . فهـو

يجعلنا فى جو ملحمى أبطاله سيف الشاعر ورمحه ساعده ، وخُوارقه اعمال الشاعر التى يضخمها الخيال الخلاق و يغشى قصصها بالصور والألوان .

وقال عنرة بن شداد العبسى:

يذيب ورد على اثره و أمكنه وقع مردى خشب
تتابع لاينبغى غيره بابيض كالقبس الملتهب
فمن يك فى قتله يعترى فان ابانوفل قد شجب
و غادرن نضلة فى معرك يجر الاسنة كالمحتطب (٤٢)

كان وفرة الشعر الحماسي فى العصر الجاهلى حتى عُدّ عنصراً اساسيا فى الأدب العربى ، وحتى ان ابا تمام جمع مختاراته قدم فيها شعر الحماسة وسمى به كتابه و كذلك فعل البحترى وغيره.

الفخر

الفخر باب كبير فى الشعر الجاهلى ، والافتخار هو المدح نفسه الا أن الشاعر يخص به نفسه او قومه او قبيلته.

وكل ما حسن فى المدح حسن فى الافتخار والتحدث بحسن بلا ئهم ومكارمهم وكرم عنصرهم و وفرة قبيلهم ، ورفعة حسبهم ونسبهم وشهرة شجاعتهم وكل ما قبح فيه قبح فى الافتخار واهم اغراض الشعر عند عمر هو الفخر ، ومن أولى من عمر و بن كلثوم بأن يفتخر بمجده ومجد قومه و حسبهم و شهرفهم و محتدهم الرفيع وفخره فى معلقةصفحة من تاريخ قومه الحربى والسياسى . وصوره كثيرة فى الشعر الجاهلى . فمن أبيات الافتخار قول عمروبن كلثوم يفتخر بقومه أمام الملك عمروبن هند ملك الحيرة ويهدده وينذره ويتوعده فى اسلوب قوى جزل مع عذوبة

وجمال ، والظاهرأن ذلك كان أيام التحاكم أمام عمروبن هندوالمفاخرة بين تغلب وبكر.

أيا هند فلاتعجل علينا وأنظرنا نخبرك اليقينا
بانا نورد الرايات بيضا ونصدرهن حمرا قد روينا
وأيام لبا غرطوال عصينا الملك فيها أن ندينا
ورثنا المجد قد علمت معد نطاعن دونه متى يبينا (٤٣)

و بعد فالمعلقة من روائع الفخر ، يقال إنها كانت تزيد على الألف بيت وقد قدمه بعض النقاد وقالوا: هو من قدماء الشعراء وإن واحدته لاجود سبعهم يعنى السبع المعلقات وذكر ابو عمر و بن العلاء ان عمر وبن كلثوم لم يقل غير واحدته – معلقته – واحدته "ولولا أنه افتخر به و ذكره للحرب ما قالها"(٤٤).

ومن أجود قصيدة افتخر فيها شاعر قصيدة اميه بن ابى الصلت وهو يقول على نمط قصيدة العمر و بن كلثوم:

ورثنا المجد عن كبرى نزار فأورثنا مآثرنا البنينا
وكنا حيثما علمت معد أقمنا حيث ساروا ها ربينا
و تخبرك القبائل من معد إذا عدوا سعاية أولينا
بانا النازلون بكل ثغر و أنا الضاربون إذا لقينا
وإنا الرافعون على معد أكفا فى المكارم ما بقينا
نشرد بالمخافة من أتانا و يعطينا المعادة من يلينا(٤٥)

و يقول طرفة من قصيدة فى الفخر:

إنا لنكسوهم و إن كرهوا ضربا يطير خلاله شرره
والمجد ننميه و نتلدا و الحمد فى الاكفاء ندخره(٦٧)

وقد ذكر فيها شيئاً من تاريخ قومه إبان حرب البسوس وسعى "الغلاق" أحد قواد ملك الحيرة بين تغلب وقومه بكمر من أجل الصلح. وكان الخلاق يميل إلى تغلب وهدد طرفة فيها تغلبا بالعودة الى الحرب

باللسان وبالسيوف جميعا وعلى الجملة فقد كان طرفة مجيدا فى فخره كما كان لاذعا فى هجائه.

اعتذار:

هو درء الشاعر التهمة عنه ، والترفق فى الاحتجاج على براءته منها واستمالة قلب المعتذر إليه واستعطافه عليه وأول من أجاد فيه واشتهر به هو النابغة الذبيانى ، هو فارس هذه الحلبة فى الجاهلية وبلغ الغاية فى الاعتذار و اعتذار ياته وقد وقف القدماء طويلا عند اجادته لفن الاعتذار ودائما يحاول النابغة أن يخترع مثل هذه الصورة ليدل على براعته و نراه يعود إلى اسقطاف النعمان. و اعتذارياته إلى النعمان بن المنذر ملك الحيرة من عيون العشر الجاهلى و انه قدم له هذا الثناء لا يبغى به نواله و إنما يبغى رضاه و أنه لم يقبل اعتذاره ألقى به فى مهاوى النكد والهم وهى فن جديد من فنون الشعر الجاهلى و تبلغ غاية الجودة والاحسان كما قال النابغة يعتذر إلى النعمان.

فلا لعمر الذى مسحت كعبته ... وماهريق على الأنصاب من جسد
والمومن العائذات الطير تمسحها ... ركبان كلة بين الغيل والسعد
ما قلت من سئ مما اتيت به ... اذا فلا رفعت سوطى إلى يدى
إذا فعاقبنى ربى معاقبة ... قرت بها عين من ياتيك بالفند
إلا مقالة اقوام شقيت بها ... كانت مقالتهم قرعا على الكبد
مهلا فداء لك الأقوام كلهم ... وما أثمر من مال و من ولد
انبئت انا ابا قابوس او عدنى ... ولا قرار على زار من الأسد(٤٦)

واجل ما وقع فى الاعتذار من مشهورات العرب قصائد النابغة الثلاث.

احداهن:

يا دارمية بالعلياء فالند ... أقوت،وطال عليها سالف الأبد(٤٧)

يقول فيها:

فلا لعمر الذى مسحت كعبته وما هريق على الانصاب من جسد(٤٨)

يقول فى قصيدته العينية التى من بديع اعتذارته:

لكلفتنى ذنب امـــرى و تـركتـــه كذى العر يكوى غيره وهو راتع
فان كنت،لا ذو الضغن عنى مكذب ولا حـلفى عـلى البـراءة نـافـع
ولا أنـا مـامـــون بشيء اقولـه و انت بـــامر ، لا محالـة ، واقـع
فـأنك كاليل الذى هو مدركى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع(٤٩)

قصائد النابغة يدل علـى براعتـه فـى اعتـذاره . فقـد كـان يعـرف كيف ينوع معانيه وكيف يسلك إليها شـعابا لم يسلكها أحـد مـن قبلـه. والذى لا ريب فيـه أن بـاب الاعتـذار والاسـتعطاف ضيـق ولكنـه عـرف بمقدرته الخيالية كيف ينفذ منه إلى صور طريفة و معان دقيقة ، يقـوده فـى ذلك ذوقه الحضرى الذى نصب أمام عينـه اتصالـه بالغساسنة ذنبـا كبـيرا وجرما لا يغتفر فى حق النعمان بن المنذر ، وقد أخذ يتنصل من هذا الجرم تارة و يعظم فضيلة العفو عن المذنب تارة ثانية وبذلـك كـان فاتحـا لبـاب الاعتذار على مصراعيه وعلى هدية تبعـه الشـعراء فـى العصـور الإسـلامية متخذين منه قدوتهم.

والحكمة والمثل .

الحكمة قول رائع يتضمن حكما صحيحا مسلما والمثل مرآة تريك احوال الامم وقد مضت و تقف بك على أخلاقها فالامثال ميزان يوزن به رُقى الامم وانحطاطها وسعادتها وشقاؤها وادبهـا ولغتهـا واكـثر مـاتكون امثال العرب وحكمها موجزة متضمنة حكما مقبولا أو تجربـة صحيحـة ، تمليها عليها طباعها بلا تكلف كتكلفه فلاسفة المولديـن ، ولا إكثـار منهـا حتى يخرج الشعر بها عن بابه المبنى على الخيال والأوصـاف ، وإنمـا يُوتـى

بها فى كلامهم كالملح فى الطعام و ممن كثرت الحكمة فى شعرهم زهير و عبدة بن الطيب و طرفة و الأفوه الأودى و علقمة بن عبدة و عبيد بن الابرص.

نجد الحكمة فى معلقة زهير حيث يقول :

ومن يك ذافضل فيبخل بفضله على قومه يستغن و يذمم
ومن يغترب يحسب عدوا صديقه ومن لا يكرم نفسه لايكرم
ومن لا يزد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم
ومن لم يصانع فى أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطا بمنسم
ومن يجعل المعروف من دونه عرضه يفره ومن لا يتق الشتم يشتم
ومهما تكن عند امرى ومن خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم(٥٠)

الحكمة هى كثيرة فى شعر طرفة. عميقة رائعة تدل على صدق النظرو قوة الفراسة وعلى ثقوب الذهن وحدة الفكر وهى مبكرة فى طرفة الشباب ولعل أسفاره و رحلاته و بئيته وقربه من ألوان الحياة و تفكير فى الحيرة قد نمتها فيه رغم صفر سنه ، و معلقته فيها الكثير من الحكم ومن حكمة قوله.

والأثم داء ليس يرجى برؤه والبر برء ليس فيه معطب
والصدق يألفه الكريم المرتجى والكذب يألفه الدنى الأخبيب(٥١)

ويقول:

ليس امرؤ أفنى الشباب مجاورا سوى حيه إلا كآخر هالك(٥٢)

ويقول:

للفتى عقل يعيش به حيث تهدى ساقه قدمه(٥٣).

كثر هذه الحكم فى الشعر طرفة و مما لا شك فيه أنه يدل بهذه الحكم على صدق نظرته ودقة حسه.

هذه الموضوعات التى قدمت جميعاً كانت تتداخل فى القصيدة الطويلة وكان يتداخل معها ضرب من الحكم والمعانى التهذيبية. ومن نماذج شعر لعلقمة بن عبدة ، هى تكثر فى ميمية الاخير وتتوالى فى أبيات متعاقبة من مثل قوله.

الحمد لايشترى إلا لاثمن ... مما يضن به الأقوام معلوم
والجود نافية للمال مهلكة ... والبخل باق لأهليه ومذموم
وكل حصن وإن طالت سلامته ... على دعائمه لابد مهدوم(٥٤)

ويلخص لنا رأى الجاهليين فى المرأة وما تطلبه من الرجل ، فيقول فى بائيته.

فان تسألونى بالنساء فانى ... بصير بأدواء النساء طبيب
إذا شاب رأس المرء أوقل ماله ... فليس له من ودهن نصيب(٥٥)

الى ماسوى ذلك من ألوان الحكمة الكثيرة فى الشعر الجاهلى. تلك هى الموضوعات الأساسية التى تنظم فى سلك القصيدة الجاهلية. فالشاعر يبدؤها بالتشبيب أو النسيب بالأطلال والديار ويصف فى أثناء ذلك حبه ، ثم يصف رحلته فى الصحراء وهى اول ما يقدمه للمرأة من ضروب جرأته وحينئذ يصف ناقته أو فرسه وقديوخرهما إلى نهاية القصيدة ، ويقدم عليها غرضه من الحماسة أو الهجاء ، أو الرثاء أو المديح مفتناً فى أثناء ذلك فى وصف ما يقع تحت عينه وناثرا حكمه وتجاربه.

العتاب

إنه باب من ابواب الخديعة يسرع إلى الهجاء وسبب وكيد من اسباب القطيعة والجفاء. فإذا قل كان داعية الألفة وقيد الصحبة وإذ اكثر خشن جانبه وثقل صاحبه وللعتائب طرق كثيرة ، وللناس فيه ضروب

مختلفة ، فمنه ما يمازجه الاستعطاف والاستئلاف ومنه ما يدخله الاحتجاج والانتصاف وقد يعرض فيه المن والإجحاف مثل ما يشركه الاعتذار والاعتراف واحسن الناس طريقاً فى عتاب الأشراف شيخ الصناعة وسيد الجماعة ابو عبادة واميه بن ابى الصلت وحكيم أقيصة الضبى وذوالاصبح العدوانى وغيرهم.

العتاب فن ليس بذائع فى الشعر الجاهلى وشواهده عديدة ومن مثله قول اميه بن أبى الصلت يعاتب ابنه.

غذمتك مولوداوعلتك يافعاً ... تعل بما أدنى إليك وتنهل
إذا ليلة نابتك بالشكو لم أبت ... لشكواك إلا ساهرا أتململ
كانى أنا المطروق دونك بالذى ... طرقت به دونى معيناى تهمل
تخاف الردى نفسى عليك وإنها ... لتعلم أن الموت وقت موجل
فلما بلغت السن والغاية ألتى ... إليها مدى ما كنت فيك أؤمل
جعلت جزائى منك هجرا وغلظة ... كأنك أنت المنعم المتفضل
وسميتنى باسم المفندرأيه ... وفى رأيك لتفنيد لو كنت تعقل
فليتك إذ لم ترع حق أبوتى ... فعلت كما الجار المجاور يفعل
تراه معد اللخلاف كأنه ... بردعلى أهل الصواب موكل(٥٦)

هى نمط جميل من الشعر العالى وتصوير لما لقى اميه عن ابن من ابنائه. من جفاء وعقوق.

وايضا قال حكيم بن قبيصة الضبى يعاتب ابنه بشرا.

لعمر أبى بشر لقدخانه بشر على ساعة فيها الى صاحب فقر
فماجنه الفردوس هاجرت تبتغى ولكن دعاك الخبز احسب والتمر(٥٧)

هوامش

١- كتاب المتين لابى هلال العسكرى: ص:٩٩- الطبعة الاولى مكتبة الخانجى ١٣٢٥هـ.

٢- العمدة لابن رشيق، ١/١٢٠- الطبعة الثالثة مكتبة التجارية ،معصر.

٣- نقد الشعر لقدامة بن جعفر. (تحقيق ، كمال مصطفى)- ص: ٦٨، ١٠١، ١١١، ١٢٢، ١٣٤، ١٤٠ مكتبة الخانجى معصر ١٩٦٣ م - الطبعة الثانية.

٤- نقد النثر المسمى بكتاب البيان لقدامة بن جعفر(تحقيق احمد مطلوب الدكتورة خديجة الحديثى . ص: ١٧٠، ١٧١- مطبعة العانى بغداد. الطبعة الاولى: ١٣٨٧هـ-١٩٦٧م.

٥- ديوان الحماسة لابى تمام (بشرح علامه تبريزى طبعة محمود توفيق) ٢/١٧٨- الطبعة الثانية مكتبة محمد على صبيح بجوار الازهر شريف.

٦- " " ٢/١٧٨، ١٧٩.

٧- " " ١/١٤، ١٥.

٨- مختار الشعر الجاهلى للسقا. ١/٢٥٥- مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى مصر.الطبعة الثانية - صفر ١٣٦٨هـ . ١٩٤٨م.والآغانى لابى الفرج الاصفهانى ، ١٠/٣٥٧ (شرحه وكتب هوامشه الاستاذ سمير جابر) دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - الطبعة الاولى- ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.

٩- فضليات لمفضل الضبى (شرح محمد بن بشار الانبارى) ص:١٣٦- مطبعة الآباء اليسوعيين- بيروت -١٩٢٠م.

١٠- اشعار الشعراء الستة الجاهليين لشنتمرى: ٢/٩٠- دار الآفاق الجديد ، بيروت الطبعة الثانية ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

١١- " " ٢-٨٦

١٢- ديوان النابغة الذبيانى (حققه فوزى عطوى) ص: ٤٦.بيروت،لبنان.

١٣- الشعر والشعراء لابن قيتبة ، (تحقيق وشرح احمد محمد شاكر) دار المعارف مصر ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م.

١٤- اشعار الشعراء لشنتمرى ، ١/٣١٩

١٥- ديوان النابغة الذبيانى ، ص ٤٧.

١٦- اشعار الشعراء لشنتمرى ، ١/٢٩٤ ، ٢٩٥، ٢٩٦.

١٧- " " " ١/٣٥١، ٣٥٢

١٨- " " " ١/٣٠١

١٩- تاريخ الادب العربى لاحمد حسن زيات - ص - ١١٠- دار المعرفة - بيروت ، لبنان. ١٤١٣ هـ ١٩٣٣م. و ديوان الخنساء (تحقيق كرم البستانى)ص،٣٠ . دار صادر بيروت.

٢٠- " " "ص ١١٠ و ديوان الخنساء ، ص ، ١١٩.

٢١- مختار الآغانى لابن منظور- ٥/١٥٦.

٢٢- ديوان الحماسة لأبى تمام (محمود توفيق) ٣/٣٤٣ ، ٣٤٤، ٣٤٥.

٢٣- ديوان النابغة الذبيانى ، ص ، ٣٦

٢٤- جمهرة اشعار العرب لابى زيد القرشى : ص ، ١٨٣ ، ١٨٧

٢٥- ديوان عنتره (تحقيق و شرح كرم البستانى) ص ، ١٦ــ دار صادر بيروت ١٣٧٧هـ/١٩٩٨م.

٢٦- المفضليات لمفضل الضبى ، ص ، ٦٧٨.

٢٧- جمهرة اشعار العرب لابى زيد القرشى ، ص: ١٨٢.
٢٨- ديوان النابغة الذبيانى ، ص ، ٣٤ ، ٣٥.
٢٩- ديوان امرو القيس (تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم) ص ، ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٣ـ دار المعارف بمصر، ١٩٦٤م ـ الطبعة الثانية.
٣٠- مختار الشعر الجاهلى للسقا ـ ٣٢٣/١.
٣١- " " " ٣١١-، ٣١١، ٣١٢.
٣٢- مختار الشعر الجاهلى للسقا ٣٠٨/١ ، ٣٠٩.
٣٣- " " " ٣٠٨/١.
٣٤- ديوان عنتره ، ص ، ٢٠
٣٥- " " ص ، ١٨ ، ١٩.
٣٦- اشعار الشعراء لشنتمرى _ ٣٩/١.
٣٧- ديوان امرو القيس – ص ، ٨٩
٣٨- الحيوان لجاحظ (تحقيق و شرح) عبدالسلام هارون ـ المجمع العلمى العربى الاسلامى بيروت ، لبنان ـ الطبعة الثالثة ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٩م).

٣٩- ديوان امرو القيس ، ص : ٢١
٤٠- ديوان الحماسة لأبى تمام ـ ١٥/١، ١٦.
٤١- " " " ٥٨/١
٤٢- " " " ١٦٥/١
٤٣- جمهرة اشعار العرب لابى زيد القرشى . ص ٣٤٤، ٣٤٥، ١٣٤.
٤٤- اشعار الشعراء لشنتمرى . ٢١٥\٢.
٤٥- مختار الشعر الجاهلى للسقا: ٣٥٨\١
٤٦- ديوان النابغة الذبيانى- تحقيق فوزى علوى : ص : ٢٨- ٢٩
٤٧- " " " ص: ١٩
٤٨- " " "ص: ٢٨

٤٩- " " " ٨٣ ، ٨٤

٥٠- ديوان زهير بن ابى سلمى (تحقيق و شرح كرم البستانى : ص ، ٨٦، ٨٧- دار صادر . بيروت ١٣٦٩ ه - ١٩٦٠م.

٥١- مختار الشعر الجاهلي للسقا: ١١\٣٤٨

٥٢- " " " " ١١\٣٤٠

٥٣- " " " " ١١\٣٣٧

٥٤- المفضليات لمفضل الضبى : ص : ٨١٠ ، ٨١١.

٥٥- " " " ص ، ٧٧٣.

٥٦- اشعار الشعراء لشنتمرى: ١٢\١٩٥، ١٩٦.

٥٧- ديوان الحماسة لأبى تمام (محمد توفيق) ١٢\٣٦١.